الدرس السادس والعشرون

تفسير سورة المزمل [١ : ٨]

بسم الله الرحمن الرحيم

{يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (١) قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (٢) نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا (٣) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا (٤) إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا (٥) إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا (٦) إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا (٧) وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا (٨)}.

هي سورة المزمل أحدى السور المكية التي نزلت في أول الإسلام. ومن مقاصدها: تقوية الصلة بالله عز وجل من طريقين قيام الليل، ترتيل القرآن وتدبره.

ومن مقاصدها: تصبير النبي صلى الله عليه وسلم على ما يلقى من أذى قومه لاسيما في أول الدعوة.

ومن مقاصدها: إثبات المعاد والجزاء والحساب.

وهذه المقاصد الإيمانية والتربوية ضرورية والنبي صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين الأوائل الذين استجابوا لدعوته ولقوا في ذات الله مالقوا.

تُستهل هذه السورة بهذا النداء

{يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ} [المزمل: ١]، هذا خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ونداء له من ربه عز وجل بوصف تلبس به في حال من الأحوال وهو (التزمل)، ومما قيل في

سبب وصفه بهذا أن قريشا اجتمعوا ليوصِّفوا حال النبي صلى الله عليه وسلم فقال بعضهم هو كاهن وقال بعضهم هو ساحر وقال بعضهم كاذب، وأرادوا أن يكيفوا كيفية معينة له صلى الله عليه وسلم ليصدوا الناس عن دعوته وينفروا الناس منه. فلما بلغه ذلك ضاق صدره والتحف بكساء والتف به فأنزل الله عليه

{يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ* قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا}، هذا هو المخرج حينما يضيق الصدر وتتراكم الهموم فإن الفرج والمخرج بأن ينشئ العبد بينه وبين ربه عبادة خاصة، ومناجاة حميمة حتى يسرب ما في نفسه من الضيق والهم والغم والكدر ويشكو بثه وحزنه إلى الله لهذا ندبه ربه عز وجل إلى قيام الليل.

قوله: {قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا}: فكان قيام الليل واجبًا على النبي صلى الله عليه وسلم وظل كذلك كما قال له ربه عز وجل: (وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا) فقيام الليل في حقه صلى الله عليه وسلم من الواجبات وهاهنا أعاد ذكر الوجوب، وذكر أيضا تقديره فقال: {نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا (٣)} وما دون النصف هو الثلث.

ويعرف منتصف الليل بأن ننصف الوقت ما بين مغيب الشمس إلى طلوع الفجر، هذا هو منتصف الليل، لا كما يظن بعض العوام أن منتصف الليل هو الساعة الثانية عشرة، هذه محاكاةٌ للغربيين، ومن لفَّ لفهم، يثبتون منتصف الليل بالساعة الثانية عشرة؛ لأنَّ المسألة عندهم اصطلاحية، لكن ما عليه أهل الإسلام

هذه المادة لم تراجع على الشيخ حفظه الله

أدعى إلى الدقة وأقرب إلى الواقع؛ لأنَّ منتصف الليل ما بين مغيب الشمس إلى طلوع الفجر، وهذا يختلف باختلاف الزمان والمكان.

قوله: {أَوْ زِدْ عَلَيْهِ}، أي زد على النصف إلى الثلثين.

مما يدل على أن في الأمر سعه وأن ذلك يرتبط ويتعلق بحال القائم فتارة يتمكن من القيام نصف الليل أو أكثر من ذلك وتارة دون ذلك، كما أن الإنسان أيضا قد يُعذر بترك قيام الليل حتى هو صلى الله عليه وسلم فقد أخبرت عائشة رضي الله عنها أنه بأبي هو أمي: (وَكَانَ إِذَا شَغَلَهُ عَنْ قِيَامِ اللَّيْلِ، نَوْمٌ أَوْ وَجَعٌ أَوْ مَرَضٌ صَلَّى مِنَ النَّهَارِ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ رَكْعَةً)، فهذه العوارض البشرية تعتريه كما تعتري سائر الناس .

روى الإمام أحمد من حديث سعيد بن هشام الطويل، أنه دخل على أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، فقال: قُلْتُ: (يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ، أَنْبِئِينِي عَنْ قِيَامِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فَقَالَتْ: أَلَسْتَ تَقْرَأُ هَذِهِ السُّورَةَ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ؟ قُلْتُ: بَلَى، قَالَتْ: " فَإِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ افْتَرَضَ قِيَامَ اللَّيْلِ فِي أَوَّلِ هَذِهِ السُّورَةِ، فَقَامَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابُهُ حَوْلًا حَتَّى انْتَفَخَتْ أَقْدَامُهُمْ، وَأَمْسَكَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ خَاتِمَتَهَا فِي السَّمَاءِ اثْنَيْ عَشَرَ شَهْرًا، ثُمَّ أَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ التَّخْفِيفَ فِي آخِرِ هَذِهِ السُّورَةِ، فَصَارَ قِيَامُ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَطَوُّعًا مِنْ بَعْدِ فَرِيضَتِهِ "، فَهَمَمْتُ أَنْ أَقُومَ ثُمَّ بَدَا لِي وَتْرُ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قُلْتُ: يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ، أَنْبِئِينِي عَنْ وَتْرِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ قَالَتْ: " كُنَّا نُعِدُّ لَهُ سِوَاكَهُ وَطَهُورَهُ، فَيَبْعَثُهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لِمَا شَاءَ أَنْ يَبْعَثَهُ مِنَ اللَّيْلِ فَيَتَسَوَّكُ، ثُمَّ يَتَوَضَّأُ، ثُمَّ يُصَلِّي ثَمَانِي رَكَعَاتٍ، لَا يَجْلِسُ فِيهِنَّ إِلَّا عِنْدَ الثَّامِنَةِ، فَيَجْلِسُ وَيَذْكُرُ رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَيَدْعُو، وَيَسْتَغْفِرُ، ثُمَّ

هذه المادة لم تراجع على الشيخ حفظه الله

يَنْهَضُ وَلَا يُسَلِّمُ، ثُمَّ يُصَلِّي التَّاسِعَةَ، فَيَقْعُدُ، فَيَحْمَدُ رَبَّهُ وَيَذْكُرُهُ وَيَدْعُو، ثُمَّ يُسَلِّمُ تَسْلِيمًا يُسْمِعُنَا، ثُمَّ يُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ وَهُوَ جَالِسٌ بَعْدَمَا يُسَلِّمُ "، فَتِلْكَ إِحْدَى عَشْرَةَ رَكْعَةً يَا بُنَيَّ. " فَلَمَّا أَسَنَّ رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأُخِذَ اللَّحْمُ أَوْتَرَ بِسَبْعٍ، ثُمَّ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ وَهُوَ جَالِسٌ بَعْدَمَا يُسَلِّمُ "، فَتِلْكَ تِسْعٌ يَا بُنَيَّ. " وَكَانَ نَبِيُّ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا صَلَّى صَلَاةً أَحَبَّ أَنْ يُدَاوِمَ عَلَيْهَا، وَكَانَ إِذَا شَغَلَهُ عَنْ قِيَامِ اللَّيْلِ، نَوْمٌ أَوْ وَجَعٌ أَوْ مَرَضٌ صَلَّى مِنَ النَّهَارِ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ رَكْعَةً، وَلَا أَعْلَمُ نَبِيَّ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَرَأَ الْقُرْآنَ كُلَّهُ فِي لَيْلَةٍ، وَلَا قَامَ لَيْلَةً حَتَّى أَصْبَحَ، وَلَا صَامَ شَهْرًا كَامِلًا غَيْرَ رَمَضَانَ)[1] .

{وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا (٤)} ترتيل القرآن: أي قراءته بتؤده وتمهل لكي يكون أكثر وقعا وتأثيرًا (وقد كانت قراءة النبي صلى الله عليه وسلم كما وصفت عائشة رضي الله عنها وغيرها مدا، كان إذا قرأ) بسم الله الرحمن الرحيم (يمد) الله (ويمد)الرحمن (ويمد) الرحيم (كما أنه كان يقف على رؤوس الآي لم يكن يهذه هذ الدقل أو هذ الرمل بل كان يتأنى في تلاوته ذلك أن القرآن مكنز للمعاني والعظات والعبر ويحتاجُ إلى قدر من المهلة للذهن لاستيعاب ما يتضمنه من هذه المعاني وتذوقها والتفكر فيها. وهذا لا يتأتى بالقراءة المترسلة السريعة ربما احتاج الإنسان في بعض الأحوال إلى قراءة مترسلة، لكن قيام الليل شأنه يختلف؛ المقصد منه أن يفرغ الإنسان، ويخلو بربه عز وجل، ويتذوق كلامه. والقرآن كلام الله، وهذا أجل

(١)أخرجه أحمد رقم (٢٤٢٦٩)، وأبو داود رقم (١٣٤٢).

أوصافه ومن القصور في تعريف القرآن أن نقول: هو المفتتح بالفاتحة المختتم بالناس هذا تعريف المصحف فيجب أن يكون التعريف المقدم للقرآن العظيم أنه (كلام الله) لأن هذه الجملة تلقي في النفس القدسية والعصمة والعظمة التي تنبغي لهذا الكلام المجيد. فإذا علم العبد أنه هذا كلام الله عز وجل تهيأت نفسه وتكيفت لاستقباله بما يليق به، حتى كان عكرمة رضي الله عنه يأخذ المصحف بين يديه ويبكي ويرتجف ويقول: كلام ربي كلام ربي. وهو (منزل) من عنده {نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَىٰ قَلْبِكَ (١٩٣)} ولم يقل على أذنك، وهو (غير مخلوق)، فالذين حاولوا أن يخرجوا القرآن عن قدسيته وصفوه بأنه مخلوق بناء على أصلهم الفاسد وهو إنكارهم لصفات الباري عز وجل وأقاموا في محنة فتنوا فيها خيار المؤمنين في القرن الثالث من الهجرة فأبى أهل السنة إلا أن يقولوا: منزل غير مخلوق منه بدا و إليه يعود تكلم الله به حقيقة فأوحاه إلى جبريل فنزل به على قلب محمد صلى الله عليه وسلم. فحينما يمتلئ القلب يقينا بهذه الحقيقة يخضع ويسلم سمعه وبصره وقلبه وجميع مشاعره لاستقبال هذا الكلام الكريم.

{إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا (٥)}، وصف الله سبحانه وتعالى القرآن بأنه قول ثقيل و إي والله إنه لثقيل؛ ثقيل في معانيه، ثقيل في هداياته، ثقيل في مقاصده وغاياته، فليس كسائر الكلام. فإن العرب قد عرفت الشعر والسجع والبديع وسائر المحسنات ....، ولكنهم لم يقفوا يوما من الأيام على مثل هذا اللون فلذلك بهروا حينما سمعوه حتى إن صناديد قريش كانوا يتسللون خفية لسماعه سرا، حتى لا يراهم العامة، يسيرون في جنح الظلام، ويقربون من بيت النبي صلى الله عليه وسلم،

هذه المادة لم تراجع على الشيخ حفظه الله

وهو يترنم بالقرآن، فيعثر بعضهم على بعض فيتلاومون قال الله تعالى: {وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ} [الأنعام: ٢٦] وما ذلك إلا خشية أن يفتتن العامة بإقبالهم عليه. {إِنَّا سَنُلْقِي} [المزمل: ٥]، ما يدل أنه صادر من علو لأن الإلقاء يكون من أعلى إلى أسفل. ففيه دليل على إثبات العلو كما أنه يوصف أنه (قول)، كما قال تعالى: {وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ قِيلًا} [النساء: ١٢٢] فهو قول الله عز وجل الله.

(إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا)، عودٌ إلى التذكير بقيام الليل و ناشئة الليل للمفسرين فيها قولان:

الأول: ناشئة الليل كل آنائه من أوله أو أوسطه أو آخره:

الثاني: إن ناشئة الليل هي التي تكون إثر نوم. وذلك أن النفس تستجم بالنوم فإذا قام الإنسان من نومته يكون قد صفا ذهنه وسكنت نفسه واستراحات جوارحه فصار مستعدًا للتأمل والتدبر. وأيًا كان فإن الليل بجملته محل للسكن فالله تعالى: {وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا} [الأنعام: ٩٦]، وقال: {هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ} [يونس: ٦٧]، وقال: {اللهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ} [غافر: ٦١]. فلو أن امرءًا صلى من أول الليل لصدق عليه أنه قد قام الليل وقد أخبرت عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم: صلى من الليل من أوله ومن أوسطه ومن آخره إلا أنه الغالب عليه صلى الله عليه وسلم أنه كان يقوم آخر الليل لأنه أفضل أوقاته حيث يتنزل الرب

هذه المادة لم تراجع على الشيخ حفظه الله

سبحانه وتعالى كما في حديث أبي هريرة الصحيح: (يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ يَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي، فَأَسْتَجِيبَ لَهُ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ)[٢]، ذلك كل ليلة فآخر الليل أسمع وأوقع لهذا قال: (إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا) أشد وطئا أي أشد مواطئة بين القلب واللسان فيكون توافق بين ما يلهج به اللسان وما ينفعل به القلب وهذا وَجْد يتذوقه كل من قام الليل فيجد الفرق بيِّنا بين صلاته بالليل وصلاته بالنهار.

{إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا (٧)}، سبحا: أي فراغا ممتدًا وبغية ومنقلبا و مجالا للتطوع بمختلف أنواعه فجعل الله سبحانه وتعالى النهار معاشا، وجعل الليل لباسا فوظيفة الليل هي الخلوة ووظيفة النهار هي الجلوة. وظيفة الليل أن يخلو العبد بربه عز وجل ويناجيه بعيداً عن الأبصار ويبثه شكواه ودعواه ويلجأ إليه ويتضرع إليه فهذه الحال تسكب في قلب المؤمن من المعاني ما لا يتأتى في النهار. وفي النهار وظائف كثيرة من السعي على نفسه وأهله و عياله، ويضرب في الأرض لتحصيل المصالح. و الموفق هو من ينزل كل وظيفة في الزمان المناسب لها. ومن تأمل هدي النبي صلى الله عليه وسلم وجد أنه يجعل لكل مقام مقالا، ولكل حال وظيفة تناسبه وهذه حقيقة التعبد. فأحسن التعبد أن تشغل الوقت بالعبادة المناسبة لها؛ فإذا أذن المؤذن فالوظيفة هي إجابة المؤذن، نقل الخطى إلى المساجد وإذا حال حول الزكاة فالوظيفة إخراجه وهكذاً في كل

(٢) أخرجه البخاري رقم (١١٤٥)، ومسلم رقم (٧٥٨).

هذه المادة لم تراجع على الشيخ حفظه الله

أمر فحقيقة التعبد لله تعالى هو الإتيان بما ندب الله إليه عباده في ذلك الحال أما أولئك الذين أسروا أنفسهم بأحوال وهيئات ورسوم طرقية بحيث لا يريدون الخروج عن هذه الوضعية ولا يغيروا سمتاً التزموه فهؤلاء ما أحسنوا التعبد، التعبد أن يفعل الإنسان ما يناسب الحال ، فلو قدر أن إنساناً ما كان له طريقة ووردا وحزب ثم حل به ضيف، فالوظيفة هي إكرام الضيف، ولو تخلف بعض ما كان يجري عليه. فينبغي للإنسان الموفق أن يتلمس هدي النبي صلى الله عليه وسلم في سبحهِ في النهار

(وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ)، المقصود من عبادة الليل ومن عبادة النهار ذكر اسم الله قال تعالى: {وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا} [الإنسان: ٢٦]، وقال: (سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى) فالذكر حقيقته ارتباط القلب بالله، إن أجل العبادات هو أن يكون القلب موصولًا بالله تعالى، لا يغيب عنه، وهذه حقيقة الذكر، فلأجل ذا ضخ الشارع الكريم من الأذكار في مختلف المناسبات والأحوال والهيئات ما يجعل الإنسان متصلًا بالله بشكل مطرد، كأذكار الصباح والمساء، وأذكار النوم واليقظة، وأذكار الطعام والشراب، وأذكار دخول المسجد والخروج منه، بل وأذكار دخول الخلاء والخروج منه، بل وحتى إتيان أهله والاستمتاع بهم، وسائر الأشياء، لا تكاد تجد مرفقًا من مرافق الحياة إلا وقد اقترن به ذكر حسنٌ جميل يذكّر العبد بالله تعالى. هذا هو الذكر الحق، وليس الذكر بأن يطقطق المسابح ويتلو بعض الوظائف وقلبه ساهٍ لاهٍ، بل ينبغي أن يكون الذكر يتواطأ فيه القلب واللسان، ولهذا قال العلماء: إن أعظم أحوال

هذه المادة لم تراجع على الشيخ حفظه الله

الذكر ما تواطأ فيه القلب واللسان، يليه في المرتبة ما استقل به القلب عن اللسان، يليه في المرتبة ما استقل به اللسان عن القلب. فربما درج بعض الناس على بعض الأذكار. وعندهم نوع من الذهول لعلهم يؤجرون، لكنهم دون من أحيوا ذكر الله تعالى بقلوبهم. ولأجل ذا كان الذكر هو الغنيمة الباردة، يقول النبي صلى الله عليه وسلم: (أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ، وَأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِيكِكُمْ، وَأَرْفَعِهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ وَخَيْرٌ لَكُمْ مِنْ إِنْفَاقِ الذَّهَبِ وَالوَرِقِ، وَخَيْرٌ لَكُمْ مِنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ»؟ قَالُوا: بَلَى. قَالَ: «ذِكْرُ اللهِ تَعَالَى)[٣]. عرضٍ مغرٍ للإنسان قائمًا أو قاعدًا أو على جنبه ويتقلب في مصالحه اليومية يتمتم بهذه الأذكار ويلهج بها فينال بذلك أعلى الدرجات، ولّما قال رجل للنبي صلى الله عليه وسلم: يا رسول الله إن شرائع الإسلام قد كثرت علي فدلني على أمرٍ أتشبث به. قال: (لَا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا مِنْ ذِكْرِ اللهِ)[٤].

(وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا) أي اعبده حق عبادته، ودُمْ على ذلك، فالتبتل هو الانقطاع في العبادة لله عز وجل وليس معنى ذلك أن يأوي إلى الديارات والمغارات والمفازات وينقطع عن الناس، كلا، المقصود بذلك أن ينقطع بقلبه لله تعالى وإن كان يعافس الأهل والأولاد، ويضرب في الأرض يبتغي من فضل الله لكنه موصولٌ بالله تعالى، يتعبد لله تعالى في كل ما يأتي وما يذر. ولا أعبَدَ لله تعالى من أنبيائه، وخير هديٍ هديُ محمد صلى الله عليه وسلم فقد كان زوجًا،

(٣) أخرجه الترمذي رقم (٣٣٧٧)، وأحمد رقم (٢١٧٠٢).

(٤) أخرجه الترمذي رقم (٣٣٧٥)، وابن ماجه رقم (٣٧٩٣).

هذه المادة لم تراجع على الشيخ حفظه الله

وأبًا، وإمامًا، وقائدًا، ومعلمًا ومع ذلك فإنه هو أعبد الناس لله تعالى، يفعل كل هذه الأشياء وهو موصول بربه عز وجل.

هذه المادة لم تراجع على الشيخ حفظه الله